في الآداب الشرعية

فضل غض البصر

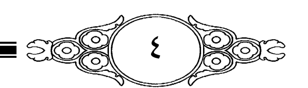
كتبه

محمد براء ياسين

١٤٣٧هـ

فضل غض البصر





«ويأمُرُنا بالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصِّدقِ، **والعَفَاف**، والصِّلَة».

أبو سفيان رضي الله عنه واصفًا النبي صلى الله عليه وسلم في خطابه لهرقل عظيم الروم

المُقَدِّمَة

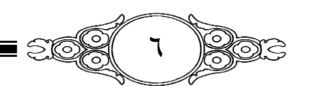
إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

وبعد،

فإن هذا الزمان زمان كثرت فيه الشرور والفتن، وزادت فيه البلايا والمحن، أما والحال كذلك، فليس لنا إلا أن نعتصم بحبل الله تعالى، ونتمسك به، فنتبع أمره ونجتنب نهيه.

وإن من أفضل ما يعين على فعل ما أمرنا الله به واجتناب ما نهانا الله عنه؛ معرفة فضل المأمور به وثوابه، ومعرفة ضرر المنهي عنه وعقابه، والمداومة على تذكر ذلك واستحضاره.

ولذا، جمعتُ هذه الرسالة تذكرة لإخواني الشباب ونصيحة لهم في أمر هام من أمور دينهم، زلَّ بسبب إهماله كثير منهم، وهو غض البصر.



وليس قصدي بيان تفاصيل أحكام النظر، وإنما أردت بها أن أذكر إخواني الشباب بهذه الفريضة، وأُبيِّن لهم فضائلَها وفوائدَها ومنزلتها في الشرع.

وأسميتها: «بشارة الشباب بما جاء في غض البصر من الثواب»[(١)]

وخصصتُ الشباب، لأنَّ الشباب معرَّضون للفتنة أكثر ممن سواهم، ولو تتبعت ظروف كثير منهم، وسبرت أحوالهم، لوجدت أن إضاعتهم لهذه الفريضة سبب رئيس في إضاعتهم لكثير من الفرائض الأخرىٰ، بل سبب لإضاعتهم لأركان الدين، فإنك تجد الشابَّ لا يصلي ولا يصوم ولو تتبعت حاله وجدت أن ذلك يرجع إلىٰ افتتانه بفتنة النساء التي لا ينجو الإنسان منها إلا بغض البصر.

وما أحسن وصف إمام الوعظ أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالىٰ لمرحلة الشباب حين قال: «وهذا هو الموسم الأعظم الذي يقع فيه الجهاد للنفس والهوىٰ وغلبة الشيطان، وبصيانتِهِ يحصلُ القرب من الله تعالىٰ، وبالتفريط فيه يقع الخسران العظيم، وبالصبر فيه علىٰ الزَّلل يُثنىٰ علىٰ الصابرين

---

(١) نُشِرت بهذا الاسم سنة ١٤٢٧هـ.

كما أثنىٰ الله عز وجل علىٰ يوسف عليه الصلاة والسلام، إذ لو زلَّ من كان يكون؟

قال النبي ﷺ: «عجِب ربك من شاب ليست له صبوة»[(١)].

وكان خلقٌ كثير يتأسَّفون في حال الكبر علىٰ تضييع موسم الشباب، ويبكون علىٰ التفريط فيه، فليُطل القيام من سيقعد، وليكثر الصيام من سيعجز.

والناس ثلاثة: من ابتكر عمره بالخير ودام عليه، فذلك من الفائزين، ومن خلَّط وقصر فذلك من الخاسرين، ومن صاحب التفريط والمعاصي فذلك من الهالكين.

فلينظرِ الشابُّ في أيِّ مقام هو، فليس لمقامه مثل، وليتلمَّح ثمن بضاعته وشرفها المستوفىٰ، فالصبر الصبر، فإن الساعي يصبر علىٰ النكاح مع كونه شابًّا شديدَ الشبق فيقال له: أحسنت! فليصبر الشاب ليقال له: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٤٠٦) والطبراني في «الكبير» (٨٥٣) وأبو يعلىٰ (١٧٤٩)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٤٧٧): «إسناده حسن». والصبوة: جهلة الفتوة واللهو من الغزل.

وليحذر زلَـله في الشباب، فإنها كعيبٍ قبيح في سلعة مستحسنة، ومن زل في الشباب فلينظُر أين لذتها؟ وهل بقي إلا حسرتها الدائمة التي كلما خطرت له تألَّم، فصار ذكرها عقوبة؟

وكان بعض السلف رحمه الله يقول: وددت أن يدي قُطعتا، وغفر لي من ذنوب الشباب»[١].

وقد صدق من قال:

تَفْنَى اللَّذَاذَةُ مِمَّن نَالَ صَفْوَتَهَا مِنَ الحَرَامِ وَيَبْقَى الإِثْمُ وَالعَارُ
تَبْقَى عَوَاقِبُ سُوءٍ فِي مَغبَّتِهَا لا خَيْرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعدِهَا النَّارُ

وَقَالَ آخَرُ:

وَنفسَكَ أكرِمْ عن أُمُورٍ كَثيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعدَهَا تَسْتَعِيرُهُا
ولا تَقْرَبِ المَرْعَى الحَرَامَ فَإنَّمَا حَلاوَتُهَا تَفنَى ويَبْقَى مَريرُهَا

وقد جعلت هذه الرسالة في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة:

التمهيد: في بيان خطورة فتنة النساء

والفصل الأول: في معنى غض البصر وحكمه وأهميته.

---

(١) «تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر» (ص٥٥ – ٦١).



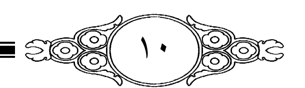
والفصل الثاني: في فضائل غض البصر وما فيه من الفوائد.

والفصل الثالث: في مفاسد إطلاق البصر وما فيه من الأضرار.

وخاتمة: في الحث على التوبة.

وأنا سائلٌ أخًا انتفع بشيء من هذه الرسالة أن يَخُصَّنِي بالدعاء، وأن يدعوَ لوالدي، ومشايخي، وسائر أحبابي، والمسلمين أجمعين.

وعلى الله الكريم اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي، وحسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



تمهيد
في بيان خطورة فتنة النساء

حسبُك في معرفة خطورة فتنة النساء، أن نبيَّنَا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النساء»(١)، ولو لم يكن في التحذير منها إلا هذا الحديثُ لكفى.

واقرأ قول نبيِّك الرؤوفِ الرحيمِ بك، الحريصِ عليك صلى الله عليه وسلم، وهو يُحذِّرك الاغترار بهذه الفتنة فيقول: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون – وفي رواية: لينظُرَ كيف تعملون –، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإنَّ أولَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٩٤، ٢١٨٧٨) والبخاري (٤٨٠٨) ومسلم (٢٧٤١) والترمذي (٢٧٠٨) وابن ماجه (٣٩٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) والترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد، وقوله صلى الله عليه وسلم: «حلوة خضرة» أي: ناعمة غضة طرية طيبة.

وقد جاءت بعض الآثار تبين لنا وسائل الإغراء والفتنة التي كانت النساء الإسرائيليات يسلكنها، فمن ذلك ما أخرجه أحمد (١١٣٦٤) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان في بني إسرائيل امرأة قصيرة، فصنعت رجلين من خشب، فكانت تسير بين امرأتين قصيرتين، واتخذت خاتمًا من ذهب، وحشت تحت فصه أطيب الطيب المسك، فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه».

=

وما أبلغ تشبيهه ﷺ لفتنة الرجال بالنساء إذ قال: «إن المرأة تُقبِل في صورةِ شيطان، وتُدبِر في صورة شيطان»[١].

قال العلماء: «معناه: الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء ، والالتذاذِ بنظرهنَّ، وما يتعلَّقُ بهنَّ ، فهي شبيهةٌ بالشيطان في دعائِه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له»[٢].

ويمكن بيان خطورة هذه الفتنة على جهة التفصيل من أربعة أوجه:

الوجه الأول : بيان دور الشيطان في فتنة النساء:

لا يخفى على مؤمن يسيرُ إلى الله تعالى، ويسعى إلى موافقَةِ محابِّه ومُجانبة مساخطِه، أن أخطر قطاع الطريق عليه في ذلك السير هو ذلك العدوُّ الألدُّ والخصمُ الأشدُّ: الشيطان الرجيم، الذي لم يزل يحاول صرف الإنسان عن ذلك الطريق، بكل ما أوتِي من أسلحة الكيد والإغواء والإضلال، مُنفذًا

=

ومن ذلك ما أخرجه الطبراني (٩٤٨٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا: « كان الرجال والنساء من بني إسرائيل يصلون جميعًا، فكانت المرأة إذا كان لها خليل تلبس القالبين تطول بهما لخليلها ».

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٧٧) ومسلم (١٤٠٣) والترمذي (١١٥٨) وأبو داود (٢١٥١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢)«شرح صحيح مسلم» للنووي (٩/ ١٧٨).

وعيده القديم: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧].

ومن تلك الأسلحة التي استعملها إبليس في حربِه مع الإنسان: فتنةُ النساء، ولسانُ حاله: «سهمي الذي إذا رميت به لم أُخطِ: النساء»(١).

وقد أخبرنا الله تعالىٰ عن تزيين الشيطان لهذه الشهوة فقال: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمرن: ١٤ – ١٥].

قال التابعيُّ الجليل الحسن بن يسار البصري رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «زُيِّن أي: زيَّن لهم الشيطان»(٢).

---

(١) «ذم الهوىٰ» (ص١٢١).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٣٢٩٧).

وقد جاء عن أئمة السلف رضي الله عنهم ما يُبيِّن دورَ الشيطان في هذه الفتنة؛ قال التابعيُّ الجليل سعيدُ بن المسيب رحمه الله تعالىٰ: «ما يئِس الشيطانُ من ابن آدم إلا أتاهُ من قِبَل النساء»[1].

وقال أبو صالح السمان رحمه الله تعالىٰ: «بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء».

والشيطان يسلك في كيدِه للإنسان لإيقاعه في فتنة النساء مسلك الاستدراج، وتلك خُطواته التي حذرنا الله تعالىٰ من اتِّباعها، وما أحسن تشبيه ابن مسعود رضي الله عنه لفتنة النساء إذ قال: «النساء حبائل الشيطان»[2]، وهذا الوصف من أصدق الأوصاف، فكم من رجلٍ اصطاده الشيطان بمصيدة النساء؟! فإذا وقعَ فيها لم يزل يستدرجه حتىٰ يوقعه في ما يكون فيه هلاكه في دينه ودنياه.

---

(١) «ذم الهوىٰ» (ص١٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٥٢). ومعنىٰ: « حبائل الشيطان»: مصايده.

ولذا، فإن الشيطان يطمع في المرأة إذا خرَجت من بيتها، كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ فقال: «المرأة عورةٌ وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها في قعر بيتها»(١).

قال الطيبي: «والمعنى المتبادرُ أنَّها ما دامت في خِدْرها لم يطمعِ الشيطان فيها، وفي إغواء الناس، فإذا خرجت طَمِع وأطمَع لأنَّها حبائِلُه، وأعظمُ فُخُوخِه»(٢).

وفي بيان خُطُوات الشيطان في استدراج الإنسان يقول ابن القيم: «أمَّا اللَّحظاتُ فهي رائدةُ الشهوة ورسولُها، وحفظُها أصلُ حفظ الفرج، فمن أطلق بصرَه أورده مواردَ الهلكات، والنظر أصل عامَّةِ الحوادث التي تُصيب الإنسان، فإن النَّظرة تولِّد خطرة، ثم تُولِّد الخطرة فكرةً، ثم تولِّد الفكرة شهوةً، ثم تُولِّد الشهوة إرادةً، ثم تقوى فتصير عزيمةً جازمةً فيقعُ الفعل ولا

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٣) وابن حبان (٥٥٩٨، ٥٥٩٩) والطبراني (١٠١١٥) والبزار (٢٠٦١)، والعرب تقول: «استشرف الشيء» إذا رفع بصره إليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس، فانظر إلى فرح الشيطان الرجيم وهو يرقب فريسته ليصطادها ويصطاد بها!

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ٢٦٦).

بدَّ، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبرُ على غضِّ الطرف أيسرُ من الصبر على ألم بعده»[1].

الوجه الثاني: بيان ضعف الإنسان الفطري في مواجهة هذه الفتنة:

«من حكمة الله سبحانه وتعالى أن ركب في الإنسان شهوة الفرج تركيبًا قويًّا، وجعل لها عليه سلطانًا شديدًا، فإذا ثارت كانت أشد الشهوات عصيانًا على العقل، فلا تقبل منه صرفًا ولا عدلًا، إلا من تحجِزُه التقوى، ويعصمه الله عز وجل بتوفيقه.

والدليل على شدة هذا الميل أن الإنسان يحتمل - بكل الرضا - مشاقَّ وتكاليفَ الزوجية، وتربيةَ الأولاد، والكدَّ والتعبَ من أجلهم، بحيث صار الإنسان مسوقًا عن طريق تسليط هذه الشهوة إلى التناسل وعمارة الدنيا ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا»[2].

---

(١) «الداء والدواء» لابن القيم (ص٣٥٠).

(٢) «أدلة الحجاب» للدكتور محمد إسماعيل المقدم (ص٢٧).

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ في تفسيرِ قوله تعالىٰ: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ١٤] : «المرأة تمرُّ بالرجل فلا يملِك نفسَه عن النظر إليها، ولا ينتفعُ بها، فأي شيءٍ أضعفُ من هذا؟!»(١).

وقال طاوس بن كيسان اليماني رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «أي: ضعيفًا في أمر النساء، ليس يكونُ الإنسان في شيء أضعفَ منه في النساء»(٢).

وطاوس - وهو من جلة التابعين وعلمائهم -، ذكر ابنه عنه أنه: «كان إذا نظر إلىٰ النساء لم يصبر عنهن!»(٣)، فكيف بمن هو دونه؟!

وقد كان بعضُ السلف يذكرون مقارناتٍ صادقةً صحيحةً تدل علىٰ إدراكهم لضعف الإنسان الفطري في مواجهة هذه الفتنة، ومن تلك المقارنات قول أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه: «لأن تمتلئ مَنخِرِيَّ من ريح جيفة، أحب إلي من أن تمتليان من ريح امرأة»(٤).

---

(١) «ذم الهوىٰ» (ص٦٠).

(٢) ولذلك فإنه كان - رحمه الله - يسد علىٰ نفسه ذريعة الفتنة، فكان لا يصحب رفقة فيها امرأة، كما رواه ابن أبي شيبة (١٧٢٢٦).

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم (٥٢١٦) وعبد الرزاق (١/ ١٥٤).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٢٩).

ومنها قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أزاحم بعيرًا مطليًّا بقَطِران، أحبُّ إلي من أن أزاحم امرأة»[١].

وقال يوسف بن أسباط رحمه الله تعالىٰ: «لو ائتمنني رجل علىٰ بيت مال لظننت أن أؤدي إليه الأمانة، ولو ائتمنني علىٰ زنجيَّةٍ أن أخلو معها ساعة واحدة ما ائتمنت نفسي عليها.

وقد سمعت الشيخ الصالح سفيان الثوري يقول: ما بعث الله عز وجل نبيًّا إلا وقد تخوف عليه الفتنة من النساء»[٢].

وقال علي بن زيد: قال لنا سعيد بن المسيب – وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت إحدىٰ عينيه وهو يعشو بالأخرىٰ –: «ما من شيء أخوف عندي من النساء!»[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٣٠) والقطران: دهن من تركيب كيمياوي قديم، يتخذ للتداوي من الجرب للإبل ولغير ذلك، كما في تفسير ابن عاشور.

(٢) «ذم الهوىٰ» (ص١٢٠).

(٣) «ذم الهوىٰ» (ص١٢٠).

الوجه الثالث: بيان دور أعداء الإسلام:

لئن كان دور الشيطان في هذه الفتنة دورًا كبيرًا ماكرًا، فإن دور جنوده وأولياءه من الكفرة والمنافقين والفساق، لا يقلُّ مكرًا وتأثيرًا.

لقد أخبرنا الله تعالىٰ عن هدفِ هؤلاء، وغايَتِهم المنشودة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، قال مجاهدُ رحمه الله تعالىٰ في تفسير هذه الآية: «أن تكونوا مثلهم، تزنون كما يزنون»(١).

وأخبرنا عن محبتهم لشيوع الفواحش فينا، وتوعدهم قائلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ولئن كانت هذه الآية قد نزلت في شأن أصحاب الإفك من المنافقين، لما أشاعوا ذكر الفاحشة طاعنينَ في أشرف نساء العالمين، مع كونهم حينئذٍ شِرذِمَةً مستضعفينَ تحت سلطان الدَّولَةِ النبويَّةِ؛ فكيف إذا سيطر هؤلاء على مواقع النفوذ وصارت أزمَّةُ الأمور بأيديهم؟!

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره».

ولا يصعب على من يعرفُ شريعة الله تعالى، إذا نظر في أعمال هؤلاء الفجار أن يستنتج أنهم عملوا على مناقضة الشريعة ومعاندتها شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، بأسلوب خبيث ماكر، تموت منه قلوب المؤمنين غيظًا وكمدًا.

فبينما نادتْ شريعة الرحمن بتحريم الزنا وجعلته جريمةً من الجرائم الكبرى التي توجب أليم العقاب؛ جعلها هؤلاء من الحريات الشخصية، التي تتكفل قوانينهم بحمايتها[(١)].

وبينما سمّت الشريعة الفواحشَ قاذوراتٍ وأوساخ، فقد سمَّاها هؤلاء علاقات عاطفية (رومانسية).

وبينما جعلت الشريعة الحجاب علامةَ الإيمان، وسِمَة الطهارة، وشعارَ العفَّة والسترِ، وجعلتِ التبرُّجَ كبيرةً وفاحشةً من أفعال الجاهلية، جعل هؤلاء الحجابَ علامة التخلُّف والجمودِ والرجعيَّة ونعتوه بأشنع الأوصاف[(٢)]،

---

(١) قال الدكتور محمد نعيم ياسين في «الوجيز في الفقه الجنائي الإسلامي» (ص٢٥ - ٢٦): «القوانين الوضعية لا تهتم بحماية الأخلاق ولا تعاقب على الأفعال التي تمسها، اللهم إلا إذا تعدى ضرر هذه الأفعال فأصاب الآخرين، فهي لا تعاقب على الزنا مثلا باعتباره رذيلة تمس الأخلاق الفاضلة، حتى إذا كان برضى الطرفين ولم يتضرر منه غيرهما فلا عقوبة عليه في أكثر القوانين الوضعية!».

(٢) انظر في الحرب على الحجاب كتاب «معركة السفور والحجاب» للمقدم.

وجعلوا التبرُّج تحضُّرًا ورقيًّا، وطائفةٌ منهم علمت مشقة طريق محاربة الحجاب الشرعي، فصارت إلىٰ طريق أشد خبثًا وأعظم تأثيرًا بأن مسختِ الحجاب الشرعي في صورة تستهوي فتيات العصر، وأملوا عليهنَّ: أن الحجاب لا يتعارض مع الأناقَةِ والجمَال[1]!

وبينما حثَّتِ الشريعة علىٰ الزواج ويسَّرت سُبُلَه؛ وضع هؤلاء أمامه الحواجزَ ونصبوا في طريقه العراقيلَ، فصارتْ سُبُل الزواج طويلةً وعرةً، وسُبُل الزنا والفاحشة مذلَّلَةً ميسورة[2].

وبينما جاءت الشريعة بتحريم النظر إلىٰ النساء الأجنبيات ومصافحتهنَّ والخلوة بهن، وتحريم الاختلاط المستهتِر بين الرجال والنساء، جاء هؤلاء الفُجَّار بكسر كُلِّ حاجزٍ بين الرجال والنساء، فأشاعُوا الاختلاط المستهتر في أماكن العمل والجامعات.

---

(١) انظر مبحث التبرج المقنع من كتاب «أدلة الحجاب» (ص١٧٩ - ١٨٥).

(٢) انظر: «منهج التربية الإسلامية» للأستاذ محمد قطب (ص٤٦٩ - ٤٧٣)، ومقالة يا ابني ضمن كتاب «صور وخواطر» (ص٢٠٥ - ٢١٤) للشيخ علي الطنطاوي، و«المرأة بين الفقه والقانون» للدكتور مصطفىٰ السباعي (ص٥٢ - ٥٣).

وبينما حرصت الشريعة على خمود ذكر الفاحشة في المجتمع، وعلوِّ ذكر العفة والطهارة والفضيلة؛ جيَّش هؤلاء وسائل الإعلام من فضائيات ومواقع إلكترونية ومجلاتٍ لتزيين الفاحشة وإشاعة الرذيلة حتى يصيرَ ذكرُها بل النظر إليها أمرًا مألوفًا، فتلك أفلام ومسلسلات رومانسية تدعو إلى العلاقات المحرمة، يتلقى الشباب والشابات منها دروسًا في أساليب الفجور، وهذه أغاني العشق والغرام تخدش حياء العفيفات وتنبت النفاق في القلوب وحب الفاحشة والمحرمات، ويصير دعاة الزنا نجومًا وقدوات![(١)]

وبينما جاءتِ الشريعة بالغيرة على الأعراض، وبذل الغالي والنفيس في سبيل صيانتها؛ عمل هؤلاء الفجار على وأد الغيرة من قلوب الرجال، حتى فشت الدياثة، فالفتاة تخرج مُتطيّبة مُتبرّجة على مرأى أبيها وهو لا يحرك ساكنًا، والزوجة صارت دُميةً يتباهى الرجل بجمالها وزينتها أمام أصحابه، وبعض من

---

(١) قال ابن تيمية : «ومن أقوى ما يهيج الفاحشة: إنشادُ أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة، فإن المغني إذا غنى بذلك حرّك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش، فعندها يهيج مرضه ويقوى بلاؤه، وإن كان القلب في عافية من ذلك جعل فيه مرضًا، كما قال بعض السلف: الغناء رقية الزنا، ورقية الحية هي ما تُستخرَج بها الحية من جحرها، ورقية العين والحمة هي ما تستخرج به العافية، ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا».
«مجموع الفتاوى» (١٥/ ٣١٣-٣١٤)

بلغت به الدياثة مبلَغها يضيّق على ابنته أو زوجته إذا التزمت بالحجاب الشرعي ويمنعها من الخروج به.

بالجملة: فإن المسلم المعاصر لا يحتاج إلى مكابدة وعناء ليعلم أنها حملات مسعورة وحرب شعواء، يقودُها إبليس وأولياؤه، هدفها: «أن تكونوا مثلهم، تزنون كما يزنون»، وإذا صرنا مثلهم لم تعد لنا هوية تميزنا عنهم، وضاعتِ الأمة في دوَّامة الأمم الكافرة، نعوذُ بحول الله وقوّته من ذلك[١].

ألم يخبرنا الله تعالى أن فسقَ قوم فرعون كان سبباً في سهولة انقيادهم له ، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ ، ذلك أنَّ الإنسانَ إذا صارَ عبدًا لشهواتِه سهل على عدوِّه أن يُوجِّهَه كما يُريد[٢].

---

(١) ثمُ رأيتُ الدكتور فريدًا الأنصاري في دراسته «الفجور السياسي والحركة الإسلامية في المغرب» (ص٧٧-١٠٧) قد فصَّل معالمَ الفُجور السياسي على المستويات التعليميَّة والإعلاميَّة والفنيَّة والاجتماعيَّة.

(٢) انظر : «منهج التربية الإسلامية» (ص٤٥٥-٤٥٦) .

ويرى الدكتور فريد الأنصاري في دراسته «الفجور السياسي والحركة الإسلامية في المغرب» أن هذه الحملات تقصد إلى إضعاف تأثير الحركة الإسلامية على المجتمع، ووجه ذلك أن تأثير الحركة الإسلامية على المجتمع مُتوقِّفٌ على قابليَّة هذا المجتمع للتديُّن، ومع تفشِّي الفجور تضعف قابليَّته للتديُّن، فيضعفُ تأثيرُ الحركة الإسلامية عليه. يقول في دراسته المذكورة (ص٧٠): «ومن هنا كان إغراقُ المجتمع في الفساد الخلقي بشتى أنواعه استراتيجيًّا لكلّ القوى

=

رابعًا: كثرة مفاسد فتنة النساء وشرورها:

وذلك من جهتين:

الجهة الأولى: إيقاع العبد في الموبقات المهلكات: فتارةً توقِعُه في الكفرِ بالله تعالى، وتارةً في الزنا أو القتل، وتارة في ما دون ذلك، كإطلاق النظر في الحرام، واستماع الأغاني الماجنة، والعلاقات المحرمة بما فيها من محادثة وخلوة وغيرها.

الجهة الثانية: حجز العبد عن المطالب العالية والغايات السامية: كالهجرة، والجهاد في سبيل الله تعالى، والدعوة إليه.

وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدَعُوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله

=

المُعادية للمدّ الإسلامي؛ لأنَّ الوصول بالرأي العام إلى مستوى الرفض الاختياري لكل ما هو نظيف يعني نجاح تلقيح المجتمع ضدَّ الصلاح، وهو في النهاية مؤشر على انحصار الحركة الإسلامية في دائرة ضيقة لن تتجاوزها أبدًا».

ﷺ، رأوا الناس قد فقهوا في الدين همُّوا أن يعاقبوهم فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ الآية»[(١)].

ومن فوائد هذه القصة: أن فتنة النساء ليست محصورةً في فتنة النساء الأجنبيات، بل يدخل في ذلك أيضًا: فتنةُ الزوجات، كما وقع لهؤلاء النفر من الصحابة، وهذا وجهٌ آخر من أوجه شرور هذه الفتنة، قال الإمام أبو زكريا النووي رحمه الله تعالىٰ في شرح حديث: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»: «وتدخل في النساءِ الزوجات وغيرُهُنَّ، وأكثرُهنَّ فتنةً الزوجات لدوام فتنتهِنَّ، وابتلاء أكثرِ الناس بهنَّ»[(٢)].

قال الغزالي: «لولا شهوة الفرج لما كان للنساء سلطنة علىٰ الرجال»[(٣)].

وقال ابن تيمية: «فالرّجل إذا تعلق قلبه بامرأة - ولو كانت مباحةً له - يبقىٰ قلبُه أسيرًا لها، تحكُم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيِّدُها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرُها ومملُوكها، لا سيما إذا دَرَت بفقره إليها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣١٧).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٧/ ٥٥).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٥/ ٣٥٩).

وعشقه لها، وأنه لا يَعتاضُ عنها بغيرها، فإنَّها حينئذ تَحكُم فيه بحُكمِ السيِّد القاهرِ الظالمِ في عبدِه المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم؛ فإن أسر القلب أعظمُ من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استُعبد بدنُه واستُرق لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا بل يمكنه الاحتيال في الخلاص.

وأما إذا كان القلب الذي هو الملك رقيقًا مُستعبدًا مُتيَّمًا لغير الله فهذا هو الذلُّ والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب»[(١)].

وأيضًا: قد تكون هذه الفتنة حاجزًا عن طلب العلم وتحصيله، وذلك لكثرة الأشغال والمسؤوليات المترتبة على الزواج[(٢)]، سيما إذا ابتُلِي الإنسانُ بزوجةٍ لا تراعي للعلم قدرًا، فيكون في زواجه منها ضياعٌ لمستقبله العلمي، كما قيل: «ضاع العلم بين أفخاذ النساء»[(٣)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠ / ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) وفي ذلك يقول سفيان الثوري: «إذا تزوج الرجل ركب البحر، فإذا ولد له كسر به» أخرجه الخطيب في «الجامع» (١/ ١٠٣).

(٣) يقول رشيد رضا في «الحياة الزوجية»: «المرأة التي تجهلُ قيمةَ زوجها المعنويَّةَ ومعارِفَه التي يمتازُ بها لا يهنأ لها معه عيش؛ لأنها لا ترى عمَلَهُ إلا شاغلًا لهُ عنها، كأنَّه ضُرَّة لها، وهو لا يهنَأ لهُ معها عيشٌ؛ لأنَّه يراها جاهلة بقدْرِه، بعيدةً عنه في نفسِه وعقلِه، وإن شئتَ قلتَ: إنَّهما يكونان

=



ومن هنا استحبَّ بعضُ أهل العلم للطالب تأخير الزواج.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله تعالىٰ: «المستحبُّ لطالب الحديث أن يكونَ عزبًا ما أمكنه ذلك؛ لئلا يقطعَه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن الطلب»[١].

ونظم ذلك بعضهم فقال:

وأخِّرِ الزَّواجَ كَي تنقطعا لأخذكَ العلمَ، وعادي الشِّبَعا [٢]

أما إذا رُزق الإنسان الزوجة الصالحة الواعية، فأنعم بها معينًا علىٰ معالي الأمور: من العلم، والدعوة، والجهاد، ولذلك قال النبي ﷺ: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[٣]، قال ابن القيم عقب هذا الحديث: «فكلُّ لذَّةٍ أعانت علىٰ لذات الدار الآخرة فهي محبوبةٌ مرضيَّةٌ للربِّ تعالىٰ، فصاحبُها يلتذُّ بها من وجهين: من جهة تنعُّمه وقرَّة عينه بها، ومن جهة إيصالها

=

شخصين متباعِدَين بالرُّوح والعَقلِ، لا يُمكن أن تتكوَّن منهما حقيقةُ الزَّوجِيَّة».

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٠١).

(٢) أرجوزة الآداب للشيخ عبد الله الحكمي البيت رقم (٤٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

له إلىٰ مرضاة ربه وإفضائِها إلىٰ لذة أكمل منها، فهذه هي اللذة التي ينبغي للعاقل أن يسعىٰ في تحصيلها، لا اللذَّةُ التي تُعقِبُه غاية الألم وتُفوِّتُ عليه أعظم اللذات»[1].

وبالجملة؛ فإن هذه الفتنة موقعةٌ للإنسان في ما يناقض مقاصد الشريعة الضرورية، التي جاءت الشريعة بحفظها، ومن هنا عظم شرُّها وكانت من أشدِّ الفتن.

ولما كانت فتنةُ النِّساء بهذه الخطورة، جاءتِ الشَّريعة بأحكامٍ تُشكِّل بمجموعها نظامًا متكاملًا، كالصَّرح الشامخ القائم علىٰ الأركان الثابتة؛ متىٰ اهتزَّ منها ركنٌ، انهار الصرح أو أوشك، أو كعقد اللؤلؤ المنضد؛ متىٰ انحلت منه لؤلؤة، انفرط العقد وتناثرت اللآلئ.

وهذه الأحكام والتشريعات علىٰ ضربين:

الضرب الأول: الأحكام والتشريعات الوقائية: كتحريم الزنا والقذف، وتشريع العقوبات الرَّادعة لمن يقع فيهما، وفرض الحجاب، وتحريم التبرج والسفور، وتشريع الاستئذان، والأمر بغض البصر، وتحريم مس الأجنبية

---

(١) «روضة المحبين» (ص٢٣٦).

ومصافحتها والخلوة بها، وتحريم سفر المرأة بغير محرم، وتحريم الخضوع بالقول، وتحريم الاختلاط المستهتر بين الرجال والنساء.

والضرب الثاني: الأحكام والتشريعات العلاجية: كالترغيب في الزواج والنهي عن الرهبانية، والترغيب باختيار الزوجة الصالحة، والترخيص بنكاح الإماء لمن لم يقدر على نكاح الحرائر، ووجوب تعاون المسلمين على تزويج عزابهم من نساء ورجال، والأمر بالاستعفاف لمن لم يجد نكاحًا[(١)].

ولما كان الأمرُ بغضِّ البصر الركنَ الركين في هذا البنيان الراسخ، إذ يوشك البنيان بدونه أن ينهار، إذ «فتنة النَّظر أصل كل فتنة»[(٢)]؛ احتجنا إلى معرفة فضائل هذه الفريضة العظيمة، ومنزلتها في الشريعة الإسلامية.

---

(١) هذا التقسيم من كتاب أدلة الحجاب وانظر التفصيل (ص٢٨ - ٧١) من الكتاب المذكور فإنه مفيد.

(٢)«روضة المحبين» (ص١٥٢).

الفصل الأول:

في معنى غض البصر وحكمه وأهميته

أما معنى الغض: فمادة الغض تفيد معنى الخفض والنقص[١].

وغض البصر[٢]: هو عبارة عن ترك التحديق واستيفاء النظر، فتارة يكون ذلك لأنَّ في الطرف كسرًا وفتورا خلقيين، وهو المراد في قول كعب بن زهير:

وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ البينِ إذ رَحَلُوا ... إلا أغنُّ غَضِيضُ الطَّرفِ مَكحُولُ

كما أنه يكون تارة من مذلة كما قال جرير:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ مِن نُمَيرٍ ... فَلا كَعباً بَلغتَ وَلا كِلاباً

ويكون تارة لقصد الكف عن التأمل أدبا مع الخلق كما قال عنترة:

وَأغُضُّ طَرفِي حِينَ تَبدُو جَارَتِي ... حَتى يُوَارِي جَارَتِي مَأواهَا

والمقصود بغض البصر الذي حثّ عليه الشرع: غضُّ البصر عن الحرَام، خوفًا من الله تعالى وعقابه، وامتثالًا لأمره.

---

(١) «التحرير والتنوير» (١٨/ ٢٠٤).

(٢) «شرح قصيدة كعب» لابن هشام (ص٧١ - ٧٢).

فمن المعلوم من الدين ضرورةً أنَّ الشَّرعَ أمر بحفظ الفروج وحرَّم الزنا، بل إن ذلك من أعظم مقاصده، والأمر بحفظ الفروج يتضمَّنُ الأمرَ بحفظ الأبصار، لأنَّ النظر بريدُ الزنا ورائِدُ الفجور.

وقد دل الكتاب والسنة والإجماع على ذلك، فأما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وأما السنة : فقول النبي ﷺ: «العينان زناهما النظر»[١]، ونحوه.

وأما الإجماع: فقد حكاه غير واحد من أهل العلم.

قال الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى: «واتفقوا على وجوب غض البصر عن غير الحريمة والزوجة والأمة، إلا من أراد نكاح امرأة حل له أن ينظرها»[٢].

وقال الإمام أبو بكر بن عبد الله العامري رحمه الله تعالى: «إن الذي أجمعتْ عليه الأمة، واتَّفق عليه علماء السلف والخلف من الفقهاء والأئمة: هو نظرُ الأجانب من الرجال والنساء بعضهم إلى بعض، وهم من ليس بينهم

---

(١) سيأتي ذكره بتمامه وتخريجه.

(٢) «مراتب الإجماع» ص (١٨٢).

رحم من النسب، ولا محرم من سبب كالرضاع وغيره، فهؤلاء حرام نظر بعضهم إلىٰ بعض»[١].

وقد عدَّ بعض السلف إطلاق النظر من الكبائر، كما جاء عن عبيدة السلماني رحمه الله تعالىٰ قال: «كل ما عصي الله به فهو كبيرة، وقد ذكر الطرفة فقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾»[٢].

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالىٰ: «عدُّ النظر واللمس والخلوة من الكبائر هو ما جرىٰ عليه غيرُ واحد، وكأنَّهم أخذُوه من الحديث الأول - يقصد قوله ﷺ: «كتب علىٰ ابن آدم نصيبه من الزنا ..»- وما بعدَه، لكن الذي جرىٰ عليه الشيخانِ[٣] وغيرُهما أنَّ مُقدِّمات الزنا ليستْ كبائر، ويُمكن الجمع بحمل هذا علىٰ ما إذا انتفت الشهوة، وخوف الفتنة، والأول علىٰ ما إذا وُجِدتا، فمن ثم قيَّدتُ بهما الأول حتىٰ يكون له نوع اتجاه، وأما إطلاق الكبيرة ولو مع انتفاء ذينك فبعيد جدًا»[٤].

---

(١) «أحكام النظر إلىٰ المحرمات» (ص٣٢ - ٣٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩٣).

(٣) أي: الإمامان الرافعي والنووي.

(٤) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢/ ٥).

ومن أبلغ ما جاء عن العلماء في تعظيمِ شأن غض البصر، ما ذكره أبو بكر المروذي رحمه الله تعالى - وهو من أصحاب الإمام أحمد -: قلتُ لأبي عبد الله – يعني الإمام أحمد -: رجلٌ تاب وقال: لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية، غير أنه لا يدع النظر!

قال: «أي توبة هذه؟!»[1].

(١) «كتاب الورع» للإمام أحمد (٢٩٣).

الفصل الثاني:

في فضائل غض البصر وما فيه من الفوائد

أولًا: غض البصر طريق للفلاح ودخول الجنة:

جاء عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عينٌ حرَسَت في سبيل الله، وعينٌ بكت من خشية الله، وعين كفّت عن محارم الله»(١) .

قال ابن القيم في فوائد غض البصر: «أنه يسدُّ عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجابٌ مانع من الوصول، فمتى هتَك الحجاب ضَرِيَ على المحظور، ولم تقِفْ نفسُه منه عند غاية، فإنَّ النفس في هذا الباب لا تقنع بغايةٍ تقف عندها، وذلك أن لذَّته في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يُقنِعُه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا و أطيب مخبرًا، فغضُّ البصر يسدُّ عنه هذا الباب، الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٣) وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٥٢٣): « وفيه أبو حبيب العنقزي ويقال القنوي لم أعرفه وبقية رجاله ثقات ».

(٢) «روضة المحبين» (ص١٦٣-١٦٤).



ولو لم يكن جزاءُ العينِ الكافَّةِ عن محارم الله إلا أنَّها لا ترى النار، لكان ذلك كافيًا في الحجز عن إطلاق النظر والحرص على غض البصر، فكيف وهي موعودة بجنان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟!

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ ثم ذكر من صفاتهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون:١ - ١١]

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] قال قتادة رحمه الله تعالى في قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾: «أي: عمّا لا يحلُّ لهم»(١).

فهذان موضعان ضمِن الله فيهما للمؤمنين الذين يغضُّون أبصارهم الفلاح، ووعدَهم بالخلود في الجنة، أما الموضع الأول فقد جاء ذلك بأقوى أنواع التوكيد: حيث أتى بحرف التحقيق (قد)، وأتى بالجُملة في صيغة الخبر،

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه بصيغة الجزم.

ثم ذكر صفات المؤمنين، ومنها أنهم: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ وحفظُ الفرج لا يكون إلا بغض البصر، فالنظرُ بريدُ الزنا، وذكر منها أنهم: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ والبصرُ من الأمانة التي ينبغي رعايتها، ثم أخبر بجزائهم فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقال في سورة المعارج بعد أن ذكر هذه الصفات: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

وفي الموضع الثاني: أمر المؤمنين بغض البصر، وأخبر أن ذلك ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾، وقد أخبرنا الله سبحانه أن التزكية توجب الفلاح حيث قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤]،وأخبرنا أيضًا أن جزاء من تزكى جنات عدن فقال: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه:٧٥ - ٧٦].

وقد جاء عن النبي ﷺ ضمانُ الجنة لمن غضَّ بصره فقال: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[١].

فيا سعادةَ من أيقن بهذا الوعدِ العظيم، والثواب الجزيل، فشغله الشوق إلى الجنان والحور الحسان عن إتعاب طرفه في المحرمات .

يا مُطلَقَ الطَّرفِ المُعذَّبِ في الأُلى　　جُرِّدنَ عن حُسنٍ وَعَن إحسَانِ

لا تسبينَّك صُورَةٌ من تحتِهَا　　الدَّاءُ الدويُّ تبوءُ بالخُسرانِ[٢]

ومن اللطائف: أن الله تعالى ذكر في صفات الحور العين أنهن: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، قال المفسرون: «قصَرْنَ طرفهنَّ على أزواجهن، فلا يُرِدْن غيرهم»، ولما كانت الطيِّبات للطيبين، فلا عجب أن يلائمها من هو مثلها في الطيب والعفة.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩) وابن حبان (٢٧١) والحاكم (٨٠٦٦) وصححه.

(٢) «نونية ابن القيم» البيتان (٥٢٦٧، ٥٢٦٨)، وقد ذكر ابن القيم بعد ذلك مساوئ نساء الدنيا، ثم شرع بوصف الحور العين بما لا تجده عند غيره.

فإن كنت - أخي الشاب - ممن يهمُّه إعجاب الفتيات الحسناوات، فيسعى إلى فعل ما يستميل قلوبهن، ويملك ألبابهن، فدُونَك حور حسان كأنهن الياقوت والمرجان؛ ثمن استهوائهن: غض البصر!

ثانيًا: غض البصر تحقيق للعبودية لله تعالى التي هي سبب السعادة:

جوهر الإسلام هو في التسليم لله تعالى، والانقياد لأحكامه وشرعه. جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله ما الإسلام؟؛ قال النبي ﷺ: «أن تُسلِم قلبَك لله، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»[1].

قال العلماء: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام».

والعبد إذا سمع أمر الله تعالى بغض البصر وهو يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ ، فاستجاب لأمره، كان في ذلك تحقيق لمعنى الإسلام والعبودية لله تعالى، وذلك غاية العزَّة والقوة، كما قيل: «الناس يطلبون العزَّ في أبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله»، ولهذا فإن غض البصر يورث قوة القلب وثباته وشجاعته[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٢٦)، (٢١/ ٢٥٨)، «روضة المحبين» (ص١٦١-١٦٢).

وامتثال أمر الله تعالىٰ بغض البصر، سببٌ في سعادةِ العبد وفوزِه، كما قال تعالىٰ في سورة النور التي ذكر فيها الأمرَ بغض البصر: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

قال ابن القيم في فوائد غض البصر: «أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشِه ومعادِه، وليس للعبد في دُنياه وآخرَتِه أنفعُ من امتثال أوامر ربِّه تبارك وتعالىٰ، وما سعِدَ من سعِدَ في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقِيَ من شقِيَ في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره»[1].

ثالثًا: غض البصر أداء لأمانة العينين:

أنعم الله تعالىٰ علىٰ خلقه بجوارح يُحصِّلون بها حاجاتهم ومآربهم، ثم جعل علىٰ كل جارحة أمرًا ونهيًا فريضة منه، ليبلوهم: أيشكرون نعمته أم يكفرونها.

والعينان من النعم التي امتن الله بها علىٰ خلقه فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ﴾ [البلد: ٨]، وأخبر أن العبدَ مسؤولٌ عنها يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ

---

(١) «الداء والدواء» (ص٤١٥).

﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ثم جعل من أداء شكرها ورعايتها: غضها عن الحرام.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: «من تضييع الأمانات النظر في الدور والحجرات»[(١)].

وجعل تعالىٰ إطلاق النظر من الخيانة، وأخبر أنه يعلم خائنة الأعين – تخويفًا وزجرًا – قال تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: «الرجل يكون في القوم فتمرُّ بهم المرأة فيريهم أنه يغضُّ بصرَه عنها، فإن رأىٰ منهم غفلةً نظر إليها؛ فإن خاف أن يفطنوا به غضَّ بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنَّه ودَّ أنَّه نظر إلىٰ عورَتِها»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧١) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٢٨) وابن أبي حاتم.

ولا ريب أن أولى الناس بحفظ هذه الأمانة هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، كما أخبر الله تعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام مع بنت الرجل الصالح، حيث فسرت أمانةَ موسى بغضه لبصره.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فسألها أبوها: «وما يُدريكِ ما قوَّتُه وما أمانتُه؟ قالت: أمَّا قوَّتُه فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلًا أقوى في ذلك السقي منه، وأما أمانتُه فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسه ولم يرفعه، ولم ينظر إليَّ حتى بلغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا لأمر إلا وهو أمين»[1].

وإذا كان صلاح الشيء بأدائه الوظيفة التي وجد من أجلها، فإن العين التي لم تؤدي الأمانة الواجبة بالكف عن الحرام في طريقها إلى التَّلفِ والفساد!

---

(١) قطعة من حديث الفتون، أخرجه النسائي في «الكبرى» (١١٣٢٦) وأبو يعلى (٢٦١٨) وابن جرير.

عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: دخل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على مريضٍ يعودُه ومعه قوم، وفي البيت امرأة فجعَل رجل من القوم ينظرُ إلى المرأة، فقال له عبد الله: «لو انفقأت عينُك كان خيرًا لك!»[(١)].

«فتفهَّم يا أخي ما أُوصِيك به، إنما بصرُك نعمةٌ من الله عليك فلا تعصِه بنعمِه، وعامِلْه بغضِّه عن الحرام تربحْ، واحذر أن تكونَ العقوبةُ سلبَ تلك النعمة!»[(٢)].

رابعًا: غض البصر انتصار على العدو:

لَيسَ الشُّجاعُ الذِي يَحمي مَطيَّتَهُ يَومَ النِّزالِ وَنَارُ الحَربِ تَشتَعِلُ
لكنْ فَتَىً غَضَّ طَرْفَاً أو ثَنَى بَصَراً عَنِ الحَرَامِ، فَذَاكَ الفَارِسُ البَطَلُ

لئن كانَ الشيطانُ قائدَ فتنة النساء ومسعرها، فإنَّ النظر هو سهمُه المسموم الذي يرمي به القلوب، فتخرَّ صريعةً مستسلمة – إن لم يدركها الله برحمته –.

فالشيطانُ «يدخل مع النظرة وينفذُ معها إلى القلب أسرعَ من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيُمثِّل له صورة المنظور اليه ويزيِّنُها ويجعلُها صنمًا يعكف عليه

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٣١).

(٢) «ذم الهوى» (ص١٠٢).

القلب، ثم يعِدُه ويمنِّيه ويوقِدُ على القلب نارَ الشهوة ويُلقي عليه حطبَ المعاصي التي لم يكن يتوصل اليها بدون تلك الصورة، فيصيرُ القلب في اللَّهب، فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التي يجد فيها وهج النار، وتلك الزفرات والحرقات، فان القلبَ قد أحاطت به النيران بكل جانب، فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور»(١).

قال ابن مسعود رضي الله عنه مبيِّنًا طمع الشيطان في كل نظرةً محرَّمة: «الإثم حَوَازُّ القلوب، وما من نظرةٍ إلا وللشيطان فيها مطمع»(٢).

ولما كان الفضلُ بن العباس رضي الله عنهما رديفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبيُ صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشقِّ الآخر. وفي رواية من

---

(١) «الداء والدواء» (ص٤٢٠ - ٤٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٧٤٩) والبيهقي في «الشعب» (٥٤٣٤). قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٥): «رواته لا أعلم فيهم مجروحًا، لكن قيل: صوابه الوقوف. ومعنى حواز: هو ما يحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب ما لا يحسن، وقيل: بتخفيف الواو وتشديد الزاي جمع حازة، وهي الأمور التي تحز في القلوب وتحك وتؤثر وتتخالج في القلوب فتكون معاصي، وهذا أشهر ».

حديث علي رضي الله عنه: ولوىٰ عنق الفضل فقال العباس: يا رسول الله! لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «رأيت شابًّا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»[(١)].

فانظر كيف فعل النبي صلى الله عليه وسلم بابن عمه، فمع كونه في حضرته متلبِّسًا بأسبابِ حجه، فإنه لم يأمن الشيطان عليه، وهذا يدل علىٰ شدة طمع الشيطان بالنظر الحرام.

وإذا غضَّ الإنسان بصرَه مُستجيبًا لأمر ربه، مُحتسبًا ما عنده من الأجر والثواب، كان في ذلك أعظم النكاية في عدوه المبين، الشيطان الرجيم، إذ إنه نجىٰ من سهمه المسموم، فيرده حينئذ خاسئًا حسيرًا.

فغض البصر هو الترس الذي يحمي به الإنسان نفسه من سهم إبليس المسموم، وينجو به من المعركة التي يُشعِلها!

قال ابن القيم: «إذا عرَضتْ نظرةٌ لا تحل، فاعلم أنها مسعر حرب فاستتر منها بحجاب: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾ فقد سلمت من الأثر، وكفىٰ الله المؤمنين القتال!»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٥٦٢، ١٣٤٧) والترمذي (٨٨٥).

(٢) «الفوائد» لابن القيم ص (٤١).

ولا يحملك ما بينته لك من طمع الشيطان وكيده أن تجبُنَ عن دفعه، فقد أخبرنا الله تعالىٰ أن كيدَ الشيطان ضعيف، وإذا أردت أن تُدرك ذلك فانظر إلىٰ نفسك وقد عرضت لك امرأة لا يحل لك النظر إليها، ثم أنت صرفتَ بصرَك عنها، ما العناءُ الذي لاقيته في كفِّ بصرك؟ إنه عناءُ لحظة فحسب، انتصرت بها علىٰ عدوّك!

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وكلُّ زمنِ الجهاد في الغضِّ لحظةٌ، فإن فعلتَ نلتَ الخير الجزيل، وسلمتَ من الشرِّ الطويل، ألم تسمع قول القائل:

إنِّي إذا ذَلَّ الحَرِيْصُ عَزَزْتُ في ظِلِّ القَنَاعَهْ
وَأقُولُ لِلنَّفْسِ اطْمَئِنِّي فَالشَّجَاعَةُ صَبرُ سَاعَهْ»[1]

وانظر إلىٰ سرورِك وبهجتِك وقد انتصرتَ علىٰ عدوك، واحمد الله علىٰ توفيقه.

قال ابن القيم في فوائد غض البصر: «أنَّه يورِث القلب سرورًا وفرحةً أعظمَ من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه.

---

(١) «ذم الهوىٰ» (ص١٠٢).

وأيضًا: فإنه لما كفَّ لذَّته وحبسَ شهوته لله، وفيها مسرة نفسه الأمارة؛ أعاضه الله سبحانه مسرّةً ولذةً أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب!

ولا ريبَ أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذَّةً أكملَ من لذَّة موافقة الهوىٰ بما لا نسبة بينهما، وها هنا يمتاز العقل من الهوىٰ»[(١)].

وكما أنَّ غض البصر انتصار علىٰ الشيطان الرجيم والنفس الأمارة بالسوء، فهو انتصارٌ علىٰ أوليائه وجنوده، فكم هي الشراك التي نصبوها لإيقاع الشاب المسلم في الفاحشة، فإذا هو غض بصره سلم منها جميعًا – بتوفيق الله تعالىٰ –، فكان في ذلك أعظم النكاية فيهم.

خامسًا: غض البصر تزكية للقلب:

التزكيةُ من المقاصد الجليلة التي امتنَّ الله تعالىٰ علىٰ المؤمنين ببعثة النبي ﷺ بها، قال تعالىٰ: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ**

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٦٢-١٦٣).

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قال خالد بن أبي عمران رحمه الله تعالى: «لا تُتْبِعوا النظر النظر، فربما نظر العبد النظرة ينْغَلُ منها قلبه كما ينْغَلُ الأديم في الدباغ ولا ينتفع به»(١).

وهذا من أبلغ التشبيه، ومعناه أن القلب يتعفَّن ويهتري بسبب النظر، كما يتعفَّن الأديم ويهتري إذا أُسيء دباغه، ثم يفسد ولا يُنتفع به.

قال ابن القيم: «بين العين والقلب منفذٌ وطريق يوجِبُ انفعالَ أحدهما بالآخر، وأن يصلُح بصلاحه أو يفسد بفساده، فإذا فسد القلبُ فسد النظرُ، وإذا فسد النظرُ فسد القلبُ، وصار كالمزبلةِ التي هي محلُّ النجاساتِ والقاذورات والأوساخ، فلا يصلُح لسكنى معرفةِ الله ومحبَّتِه والإنابةِ إليه والأنسِ به والسُّرور بقربه، وإنما يسكنُ فيه أضدادُ ذلك، وكذلك في جانب الصلاح؛ فإذا صلح القلب صلح النظر، وإذا صلح النظر صلح القلب»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦٥).

(٢) «الجواب الكافي» (ص٤٢١ - ٤٢٢) - بتصرُّف يسير -.

وقال: «النظرة تفعل في القلب ما يفعل السَّهمُ بالرميَّة فإن لم تقتله جرحته، وهي أيضًا بمنزلة الشرارة من النار تُرمىٰ في الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كلَّه أحرقتْ بعضَه»[١].

وقال ابن الجوزي: «أكثرُ فساد القلب من تخليط العين: ما دام باب عين البصر موثقًا فالقلب سليم من كل آفَةٍ، فإذا فتح طار الطائر، وربما لم يعُدْ بعد»[٢].

وقال أيضًا: «اعلَم وفَّقك الله أنَّ البصر صاحبُ خبر القلب، ينقل إليه أخبارَ المُبصرَات، وينقش فيه صورها، فيجولُ فيها الفكر، فيشغله ذلك عن الفكر فيما ينفعُه من أمر الآخرة».

ولذا أخبر الله تعالىٰ أن غض البصر سبب في زكاة القلب وتطهيره، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وزكاة القلب تكون بعمارته بالأعمال الزاكية، كمحبة الله تعالىٰ وخشيته والأنس به، وكل ذلك يناله القلب بغض البصر.

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٥٤).

(٢) «المواعظ والمجالس» (ص١٢٦).

قال مجاهد بن جبر رحمه الله: «غضُّ البصر عن محارم الله يورث حب الله»[١].

غض يورِث حبَّ الله؛ لأنَّ العبد الذي آثر رضى الله وطاعتَه على اللذَّةِ الحاصلَةِ من النظر، - وهي من حظِّ نفسه وهواه -، لم يفعل ذلك إلا لأن محبته لله تعالى تفوق محبته لنفسه وحظوظها، فيكرِمُه الله تعالى بنماء محبته – سبحانه – في قلبه، حتى يذوق حلاوة الإيمان، فالمحبَّةُ هي سببُ غضِّ البصر وزيادتُها نتيجتُه.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مُسلمٍ ينظرُ إلى محاسن امرأة ثم يغضُّ بصره إلا أحدث الله له عبادة يجدُ حلاوتها في قلبه»[٢].

قال ابن تيمية: «غضُّ البصر يورث حلاوة الإيمان ولذَّتَه التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئا لله عوَّضَه اللهُ خيرًا منه»[٣].

---

(١) «ذم الهوى» (ص١٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٣٢) والطبراني في الكبير (٧٨٤٢)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٦٧): «وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة - رضي الله عنهم -، ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه».

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٢٠)، (٢١/ ٢٥٢).

وقال ابن القيم: «غض البصر يورِثُ القلب أُنسًا بالله وجمعيَّةً على الله، فإنَّ إطلاق البصر يُفرِّق القلب ويشتِّتُه ويُبعِدُه من الله، وليس على العبدِ شيء أضرُّ من إطلاق البصر، فإنه يوقعِ الوحشة بين العبدِ وبين ربِّه»[1].

وقال الشيخ يحيى الصرصري:

وَغُضَّ عَنِ الْمَحَارِمِ مِنْك طَرْفًا ... طَمُوحًا يَفْتِنُ الرَّجُلَ اللَّبِيبَا

فَخَائِنَةُ الْعُيُونِ كَأُسْدِ غَابٍ ... إِذَا مَا أُهْمِلَتْ وَثَبَتْ وُثُوبَا

وَمَنْ يَغْضُضْ فُضُولَ الطَّرْفِ عَنْهَا ... يَجِدْ فِي قَلْبِهِ رَوْحًا وَطِيبَا

وكذلك: فإنَّ غض البصر يُنمِّي مخافة الله تعالى في قلبِ العبد، لأنَّه يعلَمُ أن الله تعالى خبيرٌ بما يصنع كما قال تعالى بعد أمره بغض البصر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

سُئل الجنيد رحمه الله تعالى: بمَ يُستعان على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أنَّ نظرَ الله إليك أسبقُ إلى ما تنظره»[2]. وذكر النووي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] في «باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٤١٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٠٩).

لغير حاجة شرعية»، مشيرًا بذلك إلىٰ أن مراقبة الله تعالىٰ وخشيته من أقوىٰ البواعث علىٰ غض البصر.

سادسًا: غض البصر سبب لنور القلب وصحة الفراسة:

جاء الأمر بغضِّ البصر في القرآن العظيم في سورة النور، وذكر الله تعالىٰ آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، عقيب قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾، ومن لطيف الإشارات التي أخذها أهل العلم من هذه الآية: أنَّ غض البصر يورِث القلب نورًا وإشراقًا يظهرُ في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أنَّ إطلاق البصر يورِثُه ظلمة تظهر في وجهه وجوارِحه.

قال ابنُ القيم: «وإذا استنارَ القلب أقبلتْ وفودُ الخيرات إليه من كل جانب، كما أنه إذا أظلمَ أقبلتْ سحائبُ البلاء والشرِّ عليه من كل مكان، فما شئتَ من بدعةٍ وضلالةٍ واتِّباعِ هوىٰ واجتنابِ هُدىً وإعراضٍ عن أسباب السعادة واشتغالٍ بأسباب الشقاوة، فإنَّ ذلك إنما يكشِفُه له النُّور الذي في

القلب، فإذا فُقِد ذلك النُّور بقي صاحبُه كالأعمىٰ الذي يجُوس في حنادِس الظلمات»[١].

وقال: «غض البصر يفتح للعبد طرُقَ العلم وأبوابَه، ويسهِّل عليه أسبابَه، فإن القلب إذا استنار ظهرتْ فيه حقائق المعلومات، وانكشفتْ له بسرعة، ونفَذَ من بعضها إلىٰ بعض، ومن أرسل بصرَه تكدَّر عليه قلبُه وأظلم، وانسدَّ عليه باب العلم وطرُقه»[٢].

ومن ثمرات ذلك النور: صحة الفراسة، قال شاهُ بن شجاع الكرماني رحمه الله تعالىٰ – وكان من أصحاب الفراسة –: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَرَ باطنه بدوامِ المُراقبة وظاهرَه باتِّباع السنة وعوَّدَ نفسَه أكل الحلال لم تُخطِ له فراسة»[٣].

قال ابن القيم: «والله سبحانه وتعالىٰ يجزي العبدَ علىٰ عملِه بما هو من جنسِه، فمن غضَّ بصره عن المحارم عوَّضه الله سبحانه وتعالىٰ إطلاقَ نور

---

(١) «الداء والدواء» (ص٤١٦ – ٤١٧).

(٢) «روضة المحبين» (ص١٦١).

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٦٧).

بصيرته، فلما حبسَ بصره لله أطلق الله نورَ بصيرته، ومن أطلق بصره في المحارم حبسَ الله عنه بصيرته»[1].

سابعًا: غض البصر يقوِّي الغيرة على أعراض المسلمين:

أصل الغيرة: كراهة القبائح وبغضها، «ومن لا غيرةَ له لا دين له، فالغيرة تحمي القلب فتحمي له الجوارح، فتدفع السوءَ والفواحشَ، وعدمُ الغَيرة تميت القلب فتموت الجوارح؛ فلا يبقى عندها دفعٌ البتة»[2].

وكما أن المسلم يكره القبائح والفواحش لأهله؛ فيغارُ على عرضه، فإن من مقتضى الولاية الإيمانية لإخوانه المسلمين، أن يكرَهَهَا لهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحبَّ أن يُزحزح عن النار، ويدخلَ الجنةَ فلتأتِه منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يؤتى إليه»[3].

وغضُّ البصر من الأعمال التي تقوي هذا المعنى، فإذا غض المسلم بصرَه عن عورات المسلمين وبناتهم ونسائهم، أورث ذلك غيرةً عليهنَّ، فلا يرضى لأعين الفساق أن تمتدَّ إليهنَّ كما أنه لا يرضى ذلكَ لنسائه ومحارمه،

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٦١)، ونحوه في «الداء والدواء» (ص٤١٧ - ٤١٨).

(٢) «الداء والدواء» (ص١٦٧ - ١٦٨).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٣).

وإطلاق البصر يورثُ عكس ذلك، فإنه يقلعُ من القلب شجرةَ الغيرة، وينبِتُ فيه شجرةَ الدياثة، التي بها ذهابُ المروؤة والدين.

ولذلك فإن النبي ﷺ لما رخَّص لأصحابه في الجلوس في الطرقات، جعل غضَّ البصر من حق الطريق، إذ الطريقُ يجتازه نساءُ المسلمين، فكأن في أمره ﷺ بذلك تنمية للغيرة على أعراض المسلمين في قلوب أصحابه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إياكم والجلوس بالطرقات». فقالوا: يا رسول الله! ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال: «إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[1].

وقد كان عنترة بن شداد - وهو جاهلي -، يفتخر بغضه لطرفه عن جارته، ويعده من كمال مروؤته فيقول:

وَأَغُضُّ طَرفِي حِينَ تَبدُو جَارَتِي حَتى يُوَارِي جَارَتِي مَأواهَا

ثامنًا: غض البصر يورث الحياء:

---

(١) أخرجه أحمد (١١٣٢٧، ١١٤٥٤) والبخاري (٢٣٣٣، ٥٨٧٥) ومسلم (٢١٢١، ٢١٦١) وأبو داود (٤٨١٥).

في الحديث المتفق عليه قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياءُ شعبة من الإيمان».

وقال ابن عمر: «إن الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رُفِع أحدُهُما رُفِع الآخر»[١].

ولما كان غضُّ البصر من خصالِ أهل الإيمان، كان بينَهُ وبين الحياء تلازم، فإذا غضَّ العبد بصره نمت شجرةُ الحياء في قلبه، وإذا أطلقه ضعف حياؤه، حتى ربما انسلخ منه بالكلية.

فالعبد يستحي من الله تعالى أن يراهُ وهو يستعمل نعمةَ العين التي أكرمه بها في معصيته، ويستحي منه إذا خلا بنفسه ولم يعد عليه رقيب إلا هو، أن يبارِزَه بالنظر إلى المحرمات.

وثمة نوع آخر من الحياء ينميه غض البصر، وهو الحياء الفطري من النظر إلى العورات، وقد أخبر النبي ﷺ أن المرأة عورة، فإذا غضَّ الإنسان بصره نما فيه هذا الخلق، ثم هو من مخالطة النساء الأجنبيات أشدُّ حياء.

تاسعًا: غض البصر عن المحارم من صفة الأنبياء والسلف الصالحين:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٥٣٥٠) وفي «الإيمان» والحاكم في «المستدرك» (٥٨) والبيهقي.

إن السالك إلى الله تعالى يحتاج إلى قدوة يحذو حذوَها، حتى يرزقه الله تعالى الهداية التي يسأله إياها في اليوم مرارًا: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، وبيَّن من هم هؤلاء المنعم عليهم فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وإذا نظرنا في أخبار السلف والصالحين وجدْنَا جُملةً طيِّبةً من الأخبار تدلُّ على حرصهم على غضِّ أبصارهم. فهنيئًا لمن اقتدى بهم.

فهذا سفيان الثوري رحمه الله تعالى جاءته امرأةٌ فقالت: إني أريد أن أسألك عن شيء. فقال لها: «أحيفي الباب – أي: رُدِّيه – ثم تكلمي من وراء الباب»[١].

وكان يحثُّ أصحابه في يوم العيد – وهو يوم تخرج فيه النساء لصلاة العيد وغيرها – على غض أبصارهم فيقول لهم: «إن أولَّ ما نبدأ به في يومنا: غض أبصارنا»[٢].

---

(١) «ذم الهوى» (ص١٢١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٢٣).

وكان حسان بن أبي سنان رحمه الله تعالىٰ يحرِص في هذا اليوم علىٰ غض بصره، فلما خرج إلىٰ العيد مرة قيل له لما رجع: يا أبا عبد الله! ما رأينا عيدًا أكثر نساء منه! فقال: ما تلقتني امرأة حتىٰ رجعت!.

وسألته امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم إليها؟!

فلما أكثرت عليه قال: ويحك! ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت حتىٰ رجعت إليك[1].

وهذا الربيع بن خُثيم رحمه الله تعالىٰ، كان يغض بصره فمر به نسوة فأطرق، حتىٰ ظن النسوة أنه أعمىٰ، فتعوَّذْنَ بالله من العمىٰ![2]

وهذا عمرو بن مرة رحمه الله تعالىٰ نظر مرَّةً الى امرأة وهو شابٌّ فأعجبته فكُفَّ بصرُه فكان يقول: «أرجو أن يكون ذلك كفارة» ويقول: «ما أحب أني بصير، كنت نظرتُ نظرةً وأنا شاب»[3].

وسيأتي مزيد من أخبارهم في موضعها من الفصل القادم بإذن الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦٧) وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١١٥).

(٢) «ذم الهوىٰ» (ص٦٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٩٥).

الفصل الثالث:

في مفاسد إطلاق البصر وما فيه من الأضرار

إطلاق النظر أصلٌ لكل فتنة، «وهو لا يحصل إلا من قلَّة في العقل، وطيشٍ في اللُّبِّ، وخوَرٍ في القلب، وعدمِ مُلاحظة للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب، ومُرسل الطرف لو علم ما تجني عواقب طرفه عليه لما أطلق بصره، ولذا قال بعضهم:

وَأَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبَباً حَتَّى يُفَكِّرَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهُ»[١].

عن ابن عيينة قال: حدثني عبد الله بن المبارك - وكان عاقلا - عن شيخ من أشياخ الشام قال: «من أعطى أسباب الفتنة نفسَه أولًا لم ينجُ آخرًا، وإن كانَ جاهدًا»[٢].

وقال المروذي: قلت لأحمد رضي الله عنه: الرجل ينظر إلى المملوكة؟

قال: «أخاف عليه الفتنة، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلابل»[٣].

---

(١) «غذاء الألباب» (١/ ٨٩)، وأصله في «روضة المحبين» (ص١٦٤).

(٢) «تاريخ بغداد» (٨/ ٨٥)، ونقله ابن مفلح في «الفروع» (٨/ ١٩١) عن «تاريخ نيسابور» للحاكم.

(٣) «كتاب الورع» للإمام أحمد (ص١١٩). والبلابل: شدة الهم والوسواس في الصدر.

وعن حمَّاد بن زيد رحمه الله تعالىٰ قال: سمعتُ أبي وأسنده قال: «لرُبَّ نظرةٍ لأن تلقىٰ الأسد فيأكلك خير لك منها»[١].

ولما كانت الغاية من غض البصر سدّ باب الفتنة – بأنواعها –، نهىٰ النبي ﷺ عن تكرار النظر، وعن إتباع النظرة النظرة، إذِ العبدُ كلما كرر نظراته اقترب من المحذور.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا علي! إن لك كنزًا في الجنة، وإنك ذو قرنيها، فلا تُتْبِع النظرة النظرة، فإنما لك الأولىٰ وليست لك الأخرىٰ»[٢].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولىٰ وليست لك الآخرة»[٣].

قال ابن الجوزي: «ربما تحايل أحد جواز القصد للأولىٰ وليس كذلك، وإنما الأولىٰ التي لم يقصدها».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٦٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩) وابن حبان (٢٧١) والحاكم (٨٠٦٦) وصححه.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٠٢٤،٢٣٠٤١) وأبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظرة الفجأة؛ قال: اصرف نظرك»[(١)].

قال ابن الجوزي: «وهذا لأن الأولى لم يحضرها القلب، ولا يتأمل بها المحاسن، ولا يقع الالتذاذ بها، فمتى استدامها مقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم».

وقال الغزالي: «وَقلَّما يخلو الإنسان في ترداداته عن وقوع البصر على النساء والصبيان، فمهما تخايل إليه الحسن تقاضَى الطَّبع المُعاودة، وعنده ينبغي أن يُقرِّر في نفسه أنَّ هذه المعاودة عين الجهل؛ لأنَّه إن حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة، وعجز عن الوصول، فلا يحصل له إلا التَّحسُّر، وإن استقبح لم يلتذَّ، وتألم لأنَّه قصد الالتذاذ، فقد فعل ما آلمه، فلا يخلو في كلتا حالتيه عن معصية وعن تألم وتحسُّر»[(٢)].

وكان السلف يتعاهدون أمرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في عدم تكرار النظر.

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٢٢٠،١٩١٨٣) ومسلم (٢١٥٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٧٦).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٥/ ٣٨٢).

وعن موسى الجهني رحمه الله تعالى قال: «كنتُ مع سعيد بن جبير في طريق فاستقبلتنا امرأة فنظرنا إليها جميعًا، ثم إن سعيدًا غض بصره، فنظرتُ إليها، فقال لي سعيد: الأولى لك، والثانية عليك»[(١)].

وقال رجل لابن سيرين رحمه الله تعالى: «أستقبل القبلة في الطريق، أليس لي النظرة الأولى ثم أصرف عنها بصري؟ قال: أما تقرأ القرآن: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾»[(٢)].

عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال: قال لي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: مالي أرى عينيك نافرة؟ فقلت: إني التفت التفاتة فإذا جارية منكشفة لبعض الحبش فلحظتها لحظه فصككتها صكة - يعيني عينه - إلى ما ترى!. فقال له أبو موسى: «استغفر ربك، فإنك قد ظلمت عينيك، لك أول نظرة وعليك ما بعدها»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢٢١).

(٣) «الورع» للإمام أحمد (ص١٢٢).

والمفاسد المترتبة على إطلاق النظر خطيرة مُهلكة، فإطلاق النظر قد يكون سببًا للكفر وسوء الخاتمة، وقد يكون سببًا للزنا، وقد يكون سببًا للوقوع في سكرة العشق وأسر الهوى، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وقد أحسن من قال:

كُلُّ الْحَوَادِثِ مَبْدَاهَا مِنَ النَّظَرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةً فَتكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا فَتْكَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وَتَرِ
وَالْعَبْدُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا فِي أَعْيُنِ الْغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى خَطَرِ
يَسُرُّ نَاظِرَهُ مَا ضَرَّ خَاطِرَهُ لَا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ عَادَ بِالضَّرَرِ

أولًا: إطلاق البصر إذا أصرَّ عليه فاعله، ولم يتب منه؛ قد يكون سببًا للكفر وسوء الخاتمة:

قال الله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور:٦٣]. قال ابن جرير: « الفتنة هاهنا: الكفر».

قال الشيخ علوان بن عطية الحموي رحمه الله: «المباشر للنظر والمصرُّ عليه مخالف لأمر الله تعالى، فما أخوفني عليه من الفتنة المذكورة في الآية التي فُسِّرت بالموت على غير الإسلام والتوحيد، فمن أحب لنفسه فليفعل، وليوطِّن نفسه حينئذ – والعياذ بالله – على العذاب المخلد، والعقاب السرمد، والخزي المقيم المؤبد، وسيحشر إذا مات على ذلك كافرًا في زمرة الكفار، فاجرًا

في عصبة الفجار، شريرًا في جملة الأشرار، مسودًّا وجهه مدحورًا إلى النار، نسأل الله العافية بجوده وفضله»[١].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «لم يكن كفر من مضى إلا من قبل النساء، وهو كائن كفر من بقي من قبل النساء»[٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٣]. قال الحسن: «بالمعاصي»[٣].

وقد صرح الإمام أحمد رحمه الله تعالى بأن معصية النظر قد تكون سببًا لحبوط العمل: «ما يؤمن أحدكم أن ينظر النظرة فيحبط عمله؟!»[٤].

وقال البخاري في «صحيحه»: «باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة، لقول الله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]».

---

(١) «عرائس الغرر وغرائس الفكر في أحكام النظر» (ص١٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٦٤٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) «فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٨٤).

قال الإمام زين الدين ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالىٰ في شرحه: «مراده أن الإصرار علىٰ المعاصي وشعب النفاق من غير توبة يخشىٰ منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلىٰ النفاق الخالص، وإلىٰ سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك»[١].

وقال تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤].

قال ابن القيم: «إن استمر العبد علىٰ الذنوب وأصرَّ عليها؛ خيف عليه أن يرين علىٰ قلبه فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب وأنا أخاف الكفر»[٢].

وقال أبو حفص عمرو بن سلمة ا لنيسابوري رحمه الله تعالىٰ: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت»[٣].

وقال ابن القيم: «الذنوب مثل السُّمُوم مضرة بالذات، فإن تداركها من سقي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرتِ القوَّةَ الإيمانية، وكان الهلاك»[٤].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٧).

(٢) «الداء والدواء».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٢٩) والبيهقي في «الشعب» (٧٢٢٣).

(٤) «مدارج السالكين» (١/ ٤٢٥).

وقد ذكر بعض أهل العلم أخبار بعض من أدىٰ به إطلاق النظر إلىٰ الكفر وسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك:

القصة الأولىٰ: قال الإمام عبد الحق الإشبيلي رحمه الله تعالىٰ: «يروىٰ أنه كان بمصر رجل يلزمُ مسجدًا للأذان والصلاة فيه، وعليه بهاءُ الطاعة وأنوارُ العبادة، فرقي يومًا المنارة علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لذميٍّ نصرانيٍّ، فاطَّلع فيها فرأىٰ ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنُك؟ وما تُريد؟

فقال: أنت أريد!

قالت: لماذا؟

قال لها: قد سلبت لُبِّي، وأخذت بمجامع قلبي!

قالت له: لا أُجيبُك إلىٰ ريبة.

قال لها: أتزوجك!

قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية، وأبي لا يزوِّجُني منك.

قال لها: أتنصَّر!

قالت: إن فعلتَ أفعل.

فتنصَّر الرجل ليتزوجها، وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار، فسقط منه فمات، فلا هو بها اتَّصل، ولا هو بدينه حصل، فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله»[1].

القصة الثانية: قال عبدة بن عبد الرحيم: «خرجنا في سرية إلىٰ أرض الروم، فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه، ولا أفقه منه، ولا أفرض، صائم النهار، قائم الليل، فمررنا بحصن لم نؤمر أن نقف علىٰ ذلك الحصن، فمال الرجل منا عن العسكر، ونزل بقرب الحصن، فظننا أنه يبول، فنظر إلىٰ امرأة من النصارىٰ تنظر من وراء الحصن، فعشقها، فقال لها بالرومية: كيف السبيل إليك؟

قالت: هين، تتنصر، ونفتح لك الباب وأنا لك.

قال: ففعل، فأدخل الحصن.

قال: فقضينا غزاتنا في أشد ما يكون من الغم، كأن كل رجل منا يرىٰ ذلك بولده من صلبه.

---

(١) «العاقبة في ذكر الموت» للإمام عبد الحق الإشبيلي ص (١٨١)، وذكر ابن الجوزي نحو هذه القصة في «ذم الهوىٰ».

ثم عدنا في سرية أخرىٰ، فمررنا به ينظر من فوق الحصن مع النصارىٰ، فقلنا: يا فلان! ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صلاتك وصيامك؟.

قال: اعلموا أني نسيت القرآن كله، ما أذكر منه إلا هذه الآية: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾ [الحجر:١ - ٢].

قال الإمام أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالىٰ بعد روايته لهذه الحكاية: «هكذا يكون حال من تدركه الشقاوة والعياذ بالله، نسأل الله التوفيق والعصمة بفضله»[١].

ثانيًا: النظرُ بريد الزنا:

العقول السليمة والفطر المستقيمة تبصر أوجه الشر والفساد المترتبة علىٰ جريمة الزنا، فتقضي بقبحها وقبح كل ما يؤدي إليها.

وقد جاءت الشريعة مطابقة لما في الفطر والعقول من استقباح الزنا، فعدَّتهُ من كبائر الذنوب المنافية لكمال الإيمان، ورتبت عليه أقسىٰ العقوبات

---

(١) أخرج هذه الحكاية ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٧/ ٣٧٩) والبيهقي في الشعب (٤٣١٩).

وأشدها، بل حرَّمَت الاقتراب منه؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام:١٥١].

ولا ريبَ أنَّ إطلاق النظر هو الطريق المؤدي إلى الوقوع في هذه الفاحشة.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

قال الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى في «تفسيره»[1]: «قدَّم غض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر لا يكاد يقدر على الاحتراز منه، وهو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طرق الحواس إليه، ويكثر السقوط من جهته. وقال بعض الأدباء:

وما الحب إلا نظرة إثر نظرة ... تزيد نموا إن تزده لجاجًا»

---

(١) «البحر المحيط» (٦/ ٤٤٧).

وقال الشيخ شرف الدين الحجاوي رحمه الله تعالىٰ عند قول الإمام المرداوي في «منظومة الآداب»:

وطرفُ الفتىٰ يا صاحِ رائدُ فرجِه ومُتعبُه فاغضضه ما اسطعتَ تهتدِ

«فضول النظر أصل البلاء، لأنه رسول الفرج، أعني أن الآفة العظمىٰ والبلية الكبرىٰ، وهو الزنا، إنما يكون سببُه - في الغالب - النظر، فإنه – أعني فضول النظر - يدعو إلىٰ الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والفكرة في النظرة، فهذه الفتنة من فضول النظر، وهو من الأبواب التي تفتح للشيطان علىٰ ابن آدم»[1].

ولذلك فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم جعل النظر من أنواع الزنا فقال: «كُتِب علىٰ ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوىٰ ويتمنىٰ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»[2]. وفي رواية:

---

(١) «شرح منظومة الآداب الشرعية» (ص٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٥٠١، ومواضع أخرىٰ) والبخاري (٥٨٨٩، ٦٢٣٨) ومسلم (٢٦٥٧) وأبو داود (٢١٥٢).

«واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان فزناهما المشي، والفم يزني فزناه القبل».

وفي رواية عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «العينان تزنيان، والرجلان تزنيان، والفرج يزني»[(١)].

قال النووي: «معنىٰ الحديث: أن ابن آدم قُدِّر عليه نصيبٌ من الزنا ، فمنهم من يكون زناه حقيقيًّا بإدخال الفرج في الفرج الحرام ، ومنهم من يكون زناه مجازًا بالنظر الحرام أو الاستماع إلىٰ الزنا وما يتعلق بتحصيله ، أو بالمسِّ باليد بأن يمسَّ أجنبية بيده ، أو يقبِّلَها ، أو بالمشي بالرجل إلىٰ الزنا، أو النظر ، أو اللمس ، أو الحديث الحرام مع أجنبية ، ونحو ذلك ، أو بالفكر بالقلب؛ فكل هذه أنواع من الزنا المجازي.

«والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه»: معناه أنه قد يُحقِّق الزنا بالفرج ، وقد لا يُحقِّقه بألا يولجَ الفرجَ في الفرج، وإن قارب ذلك، والله أعلم»[(٢)].

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال:«كلُّ عينٍ فاعلة» يعني: زانية.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٩١٢) والطبراني في «الكبير» (٨٦٦١) والبزار (١٩٥٦) وأبو يعلىٰ (٥٣٦٤).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (١٦/ ٢٠٦).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالىٰ: «زنا العين من كبار الصغائر، وهو يؤدِّي إلىٰ القرب علىٰ الكبيرة الفاحشة وهي زنا الفرج، ومن لم يقدر علىٰ غضِّ بصره لم يقدر علىٰ حفظ دينه»[١].

وقال: «النَّظرُ مبدأ الزنا، فحفظُه مُهمّ، وهو عسيرٌ من حيث إنه قد يُستهان به، ولا يعظمُ الخوفُ فيه، والآفاتُ كلُّها تنشأ منه»[٢].

وقال ابن الجوزي: «لما كان إطلاق البصر سببًا لوقوع الهوىٰ في القلب؛ أمرك الشرع بغضِّ البصر عما يُخاف عواقبُه، فإذا تعرضت بالتخليط وقد أمرت بالحمية فوقعت إذًا في أذىٰ فلم تنج من أليم الألم.

قال الله عز وجل: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ** ﴾، ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ** ﴾ ثم أشار إلىٰ مسبب هذا السبب، ونبَّه علىٰ ما يؤول إليه هذا الشر بقوله: ﴿ **وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ** ﴾، ﴿ **وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾»[٣].

قال: «وأضرب لك في ذلك مثلا: إذا رأيت فرسًا قد مالَتْ براكِبها إلىٰ درب ضيق فدخلت فيه ببعض بدنها، ولضِيِّق المكان لا يمكن أن تدورَ فيه،

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٥/ ٣٦٦).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٥/ ٣٨١).

(٣)«ذم الهوىٰ» (ص٥٥).

فصيحَ به: أرجعها عاجلًا قبل أن يتمكّنَ دخولها! فإن قَبِلَ وردَّهَا خطوةً إلى ورائها سهل الأمر، وإن توانى حتى ولجت ثم قام يجذبها بذنَبِها طال تعبُه، وربَّما لم يتهيأ له، وكذلك النظرة إذا أثَّرَت في القلب؛ فإن عجَّل الحازِمُ بغضِّها وحسم المادة من أوَّلِها سهل علاجه، وإن كرَّر النظر نقَّب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلبٍ متفرِّغ فنقشها فيه، فكلما تواصلت النظرات كانت كالمياه تسقى بها الشجرة فلا تزال تنمي، فيفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، ويخرج بصاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات ويلقى في التلف.

والسبب في هذا الهلاك: أن الناظر أول نظرة التذَّ بها فكرَّرها يطلب الالتذاذ بالنظر مستهينًا بذلك، فأعقبَه ما استهان به التلف، ولو أنه غضَّ عند أول نظرة لسلِم في باقي عمره»[1].

ثالثًا: إطلاق البصر يوقع العبد في سكرة العشق:

النظر باب العشق، ذلك البلاء الذي إذا استحكم تكاد تقارب آفاته آفات الشرك. وقد قيل: أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر[2].

---

(١) «ذم الهوى» (ص٦٤-٦٥).

(٢) ليس هذا موضع بيان آفات العشق، وأقسامه، وأحكامه، وعلاجه، فإن شئت التفصيل فراجع «روضة المحبين» و «الداء والدواء».

قال القرطبي: «البصر هو البابُ الأكبر إلى القلبِ، وأعمرُ طُرق الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله»[(١)].

وقيل في هذا المعنى:

خليلي للبغضاء عين مبينة ... وللحبِّ آيات ترى ومعارف

ألا إنما العينان للقلب رائد ... فما تألَفِ العينان فالقلب يألفُ

قال الإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى: «وليحذر العاقل من إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه، وربما وقع من ذلك العشق، فيهلك البدن والدين»[(٢)].

وقال ابن القيم: «إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال تعالى في عشاق الصور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢] فالنظرة كأس من خمر، والعشق سكر ذلك الشراب.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٢٣).

(٢) «الفروع» لابن مفلح (٥/ ١٥١).

وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سُكران: سكر هوىٰ وسكر مدامة ... ومتىٰ إفاقة من به سكران[1]

وقد شكىٰ العشاق من نظراتهم التي كانت سبب آلامهم وآهاتهم[2]:

تَزَوَّدَ مِنْهَا نَظْرَةً لَمْ تَدَعْ لَهُ ... فُؤَادًا وَلَمْ يَشْعُرْ بِهَا قَدْ تَزَوَّدَا

فَلَمْ أَرَ مَقْتُولًا وَلَمْ أَرَ قَاتِلًا ... بِغَيْرِ سِلَاحٍ مِثْلها حِينَ أَقْصدَا

وفي نفس المعنىٰ قالَ آخرُ:

وَمَنْ كَانَ يُؤْتَىٰ مِنْ عَدُوٍّ وَحَاسِدٍ ... فَإِنِّي مِنْ عَيْنِي أُتِيت وَمِنْ قَلْبِي

هُمَا اعْتَوَرَانِي نَظْرَةً ثُمَّ فِكْرَةً ... فَمَا أَبْقَيَا لِي مِنْ رُقَادٍ وَلَا لُبِّ

وقال ابْنُ المعْتزِّ:

مُتَيَّمٌ يَرْعَىٰ نُجُومَ الدُّجَىٰ ... يَبْكِي عَلَيْهِ رَحْمَةً عَاذِلُهُ

عَيْنِي أَشَاطَتْ بِدَمِي فِي الْهَوَىٰ ... فَابْكُوا قَتِيلًا بَعْضُهُ قَاتِلُهُ

وَقَالَ آخَرُ:

يَا قَاتَلَ اللهُ الجُفُونَ فإنَّهَا ... مَهمَا رَمَت لَمْ تُخْطِ شَاكِلَةَ الرَمِيْ

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٦٤).

(٢) انظر: «ذم الهوىٰ» و«روضة المحبين» (ص١٥٤-١٦٠).

وَفِيْهِ :

لَوَاحِظُنَا تَجْنِي وَلا عِلْمَ عِندَهَا وَأنفُسُنَا مَأخُوذَةٌ بِالجَرَائِرِ
وَلَمْ أرَ أغْبَى مِنْ نُفُوسٍ عَفَائِفٍ تُصَدِّقُ أخْبَارَ العُيُونِ الفَوَاجِرِ
وَمَنْ كَانَتِ الأجْفَانُ حُجَّابَ قَلبِهِ أذِنَّ عَلَىٰ أحْشَائِهِ بِالفَوَاقِرِ

وقال ابن الحريريِّ :

فَتبَصَّرْ وَلا تَشُمَّ كُلَّ بَرْقٍ رُبَّ بَرْقٍ فِيْهِ صَوَاعِقُ حيْنِ
وَاغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرَامٍ تكتَسِي فِيهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ
فَبَلاءُ الفَتَىٰ مُوافَقَةُ النَّفْسِ وَبِدْءُ الهَوَىٰ طُمُوحُ العَيْنِ

وَفِيْهِ:

لله مَا صَنَعَتْ بِنَا تِلْكَ المَحَاجِرُ فِي المَعَاجِرْ
أمْضَىٰ وَأبْعَدُ فِيْ القُلُوبِ مِنَ الخَنَاجِرِ فِيْ الحَنَاجِرْ

وأنشدَ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ في «الدَّاءِ وَالدَّواء» لنفسِهِ:

مَلَّ السَّلامَةَ فَاغْتَدَتْ لَحَظَاتُهُ وَقْفًا عَلَىٰ طَلَلٍ يَظُنُّ جَمِيلَا
مَا زَالَ يُتْبِعُ إثْرَهُ لَحَظَاتَهُ حَتَّىٰ تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلاً

وفيه:

مَا زِلْت تُتْبِعُ نَظْرَةً فِي نَظْرَةٍ فِي إثْرِ كُلِّ مَلِيحَةٍ وَمَلِيحِ
وَتَظُنُّ ذَاكَ دَوَاءَ جُرْحِكَ وَهْوَ فِي التَّحْقِيقِ تَجْرِيحٌ عَلَىٰ تَجْرِيحِ

فَـذَبَحْت طَرْفَـك بِاللِّحَـاظِ وَبِالْبُكَـا فَالْقَلْـبُ مِنْـك ذَبِـيحٌ ابْـنُ ذَبِـيحِ

وأنشد في «روضة المحبين ونزهة المشتاقين»:

أَلَمْ أَقُلْ لَك لَا تَسْرِقْ مُلَاحَظَةً فَسَارِقُ اللَّحْظِ لَا يَنْجُو مِنْ الدَّرَكِ

نَصَبْت طَرْفِي لَهُ لَمَّا بَدَا شَرَكًا فَكَانَ قَلْبِي أَوْلَى مِنْهُ بِالشَّرَكِ

ولهذا كان غض البصر مُنقذًا للقلب من الآلام والحسرات والأحزان التي يقع بها العشاق.

عن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالىٰ قال: «نظرةٌ يهواها القلب، فلا خير فيها»[1].

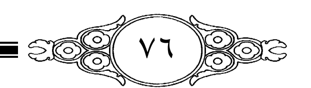
وقال بعضهم: «اللحظات تورث الحسرات، أولها أسف وآخرها تلف، فمن تابع طرفه تابع حتفه»[2].

قال ابن القيم: «غض البصر يخلص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء علىٰ القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتدُّ طلبُه ولا صبرَ له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢١٧).

(٢) «ذم الهوىٰ» (ص٦٤).



قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلت أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا! ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟! فأنشأت تقول:

وكنتَ متىٰ أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يوما أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُلّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ»[1].

فإن قيل: فما هو السبيل لمعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر؟

قال ابن الجوزي: «اعلم – وفَّقَك الله – أنك إذا امتثلت المأمور به من غض البصر عند أول نظرة سلمت من آفات لا تحصىٰ، فإذا كررت النظر لم تأمن أن يزرع في قلبك زرعًا يصعب قلعه، فإن كان قد حصل ذلك فعلاجه بالحمية بالغض فيما بعد، وقطع مراد الفكر بسد باب النظر فحينئذ يسهل علاج الحاصل في القلب، لأنه إذا اجتمع سيل فسد مجراه، سهل نزفُ الحاصل، ولا علاج للحاصل في القلب أقوىٰ من قطع أسبابه، ثم زجر الاهتمام به خوفا من عقوبة الله عز وجل، فمتىٰ شرعت في استعمال هذا

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٥٣-١٥٤).

الدواء، رجي لك قرب السلامة، وإن ساكنت الهم ترقىٰ إلىٰ درجة العزم، ثم حرك الجوارح»[١].

وسئل ابن تيمية عمن أصابه سهم من سهام إبليس المسمومة، فأجاب: «من أصابه جرح مسموم فعليه بما يخرج السم، ويبرئ الجرح بالترياق والمرهم، وذلك بأمور، منها: أن يتزوج أو يتسرىٰ؛ فإن النبي ﷺ قال: «إذا نظر أحدكم إلىٰ محاسن امرأة فليأت أهله؛ فإن معها مثل الذي معها »، وهذا مما ينقص الشهوة، ويضعف العشق.

الثاني: أن يداوم علىٰ الصلوات الخمس، والدعاء، والتضرع وقت السحر، وتكون صلاته بحضور قلب وخشوع، وليكثر من الدعاء بقوله: يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلىٰ طاعتك و طاعة رسولك، فإنه متىٰ أدمن الدعاء والتضرع لله صرف قلبه عن ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) «ذم الهوىٰ» (ص١٠٣).



الثالث: أن يبعد عن مسكن هذا الشخص، والاجتماع بمن يجتمع به، بحيث لا يسمعُ له خبرًا، ولا يقعُ له على عين ولا أثر، فإن البُعدَ جفا، ومتى قلَّ الذكرُ ضعف الأثرُ في القلب. فليفعل هذه الأمور، وليُطالع بما تجدَّد له من الأحوال. والله أعلم»[١].

رابعًا: إطلاق البصر يوقِع العبد في أسر الشهوة:

لئن كان في غض البصر تحقيقٌ لمعنى العبودية لله تعالى؛ فإن إطلاقه يوقع العبد في عبودية الهوى وأسر الشهوة.

هربُوا من الرِّقِّ الذي خُلِقُوا له فبُلُوا برِقِّ النَّفسِ والشَّيطانِ

عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: «رُبَّ نظرة أوقعت في قلب صاحبها شهوة، ورب شهوة أورثت صاحبها حُزْنًا طويلًا»[٢].

وعن العلاء بن زياد رحمه الله تعالى: «لا تتبع بصرك حسن رداء المرأة، فإن النظر يجعل الشهوة في القلب»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٢/ ٥ - ٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٦٣٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢١٥) وابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٧).

وقد كان النبي ﷺ يُعلِّم بعض أصحابه الاستعاذة من شرّ هذه الشهوة، بأن يقُول: «اللهم إني أعوذ بك من شَرِّ سمعِي، ومن شَرِّ بصري، ومن شر لِسَاني، ومن شر قلبي، ومن شر مَنِيِّي»(١).

وقال بعضُ المُفسِّرين في قولِه تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٦٨]: «الغُلْمة»(٢).

وقد شهد العارفون بقوة هذه الشهوة وشدة الخلاص منها علىٰ النفوس.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالىٰ: «ليس في الأرض شيء أشد من ترك شهوة»(٣).

وعن يزيد بن ميسرة رحمه الله تعالىٰ قال: «ما أشد الشهوة في الجسد، إنها مثل حريق النار، وكيف ينجو منها الحصوريون؟»(٤).

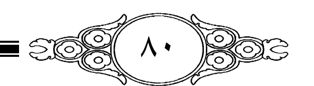
---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥١) والترمذي (٣٤٩٢) والنسائي (٥٤٤٤، ٥٤٥٥، ٥٤٥٦، ٥٤٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٠٥) عن مكحول. والغُلْمة: هيجان شهوة النكاح.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٤١).



وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالىٰ في كتابه «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» بعد أن ذكر قوىٰ الإنسان الثلاث: القوة الفكرية، والقوة الغضبية، والقوة الشهوية: «أصعب هذه القوىٰ الثلاث: مداومة قمع الشهوة، لأنها أقدم القوىٰ وجودًا في الإنسان، وأشدها به تشبُّثًا، وأكثرها منه تمكُّنًا، فإنها تولد معه، وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه، بل في النبات الذي هو جنس جنسه، ولا يصير الإنسانُ خارجًا من جملة البهائم وأسر الهوىٰ، إلا بإماتة الشهوة البهيمية لو بقهرها وقمعها، إن لم يمكنه إماتته إياها، فهي التي تضرُّه وتغرُّه وتصرِفُه عن طريق الآخرة.

ومتىٰ قمعها أو أماتها صار الإنسان حرًّا نقيًّا، بل يصيرُ إلهيًّا ربَّانيًّا، فتقلُّ حاجاتُه ويصير غنيًّا عمَّا في يد غيره، وسخيًّا بما في يده، ومُحسنًا في معاملاته»[1].

وغض البصر من الوسائل التي يُقاوِم بها الإنسان قوّة الشهوة؛ قال ابنُ القيم: «غضُّ البصر يُخلِّص القلبَ من أسرِ الشهوة، فإن الأسير هو أسيرُ شهوته وهواه فهو كما قيل:

* طليقٌ برأي العين وهو أسير *

(١) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» ص (٥٢).

ومتىٰ أسَرَتِ الشَّهوةُ والهوىٰ القلبَ تمكَّن منه عدوُّه وسامَه سوءَ العذاب وصار:

كعصـفورةٍ في كـفِّ طفــل يســومُها　　حياضَ الردىٰ والطفلُ يلهو ويلعـبُ»[١]

وقد قيل: نعم حاجب الشهوات غضُّ البصر.

وقيل:

من أطلَقَ الطَّرفَ اجتنىٰ شَهوَةً　　وحارسُ الشَّهوة غضُّ البَصَر

وهنا مكيدة إبليسية، يمليها الشيطان – أو أولياؤه – علىٰ الشاب، وهي أن التحرر من أسر الشهوة أمر (مثالي)، لا وجود له إلا في الأذهان، ثم إنه يؤدي إلىٰ استقذار الشهوة الجنسية، وهو ما يسمونه بـ« الكبت الجنسي»[٢].

والجواب: أن التحرَّر من أسر الشهوة لا يعني استقذارها، ولا استقذار العملية الجنسية – لذاتها –، بل الإسلام يحث علىٰ استنفاد هذه الشهوة في الطرق المشروعة، بل يرتب الأجر والثواب علىٰ ذلك، والنبي ﷺ يقول:

---

(١) «روضة المحبين» (ص١٦٣).

(٢) انظر: «منهج التربية الإسلامية» ص (٤٥١ – ٤٥٦).

«حُبِّب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[(١)]، لكن الذي يريده الإسلام هو أن يتجرد الإنسان من عبوديته لغير الله تعالىٰ، فلا تتجاوز به هذه الشهوة أثرها الطبيعي، بحيث تصير الحاكم عليه في اعتقاده وسلوكه، وتجعله يتعدىٰ حدود الله تعالىٰ، وهذا ليس أمرًا (مثاليًّا) لا وجود له في الواقع بل هو ما تمليه الفطرة السوية والعقل السليم.

قال الراغب الأصفهاني بعد كلامه آنف الذكر: «الشهوة إنما تكونُ مذمومةً إذا كانت مُفرِطة، وأهملها صاحبها حتىٰ ملَكت عليه الهوىٰ، فإذا ما أُدِّبت فهي المبلغة إلىٰ السعادة وجوار رب العزة، حتىٰ لو تُصوِّرت مرتفعةً لما أمكن الوصول إلىٰ الآخرة، وذاك أن الوصول إلىٰ الآخرة بالعبادة، ولا سبيل إلىٰ العبادة إلا بالحياة الدنيوية، ولا سبيل إلىٰ الحياة الدنيوية إلا بحفظ البدن، ولا سبيل إلىٰ حفظ البدن إلا بإعادة ما يتحلَّلُ منه، ولا سبيل إلىٰ إعادة ما يتحلَّلُ منه إلا بتناول الأغذية، ولا يمكن تناول الأغذية إلا بالشهوة، فإذن: الشهوة مُحتاجٌ إليها، ومَرغوبٌ فيها، وتقتضي الحكمة الإلهية إيجادها وتزيينها كما قال تعالىٰ: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ . . .﴾الآية، لكن

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٢) والنسائي في الكبرىٰ (٨٨٨٧).

مثلها مثل عدوٍّ تُخشىٰ مضرته من وجه، وتُرجىٰ منفعته من وجه، ومع عداوته لا يُستغنىٰ عن الاستعانة به، فحقُّ العاقل أن يأخذ نفعه، ولا يسكن إليه، ولا يعتمد عليه إلا بقدر ما ينتفع به.

وأيضًا: فإنَّ هذه الشهوة هي المشوِّقة لعامَّة الناس إلىٰ لذَّات الجنة من المأكل والمشرب والمنكح، إذ ليس كلُّ الناس يعرفُ اللذَّات المعقولة، ولو توهمناها مرتفعة لما تشوَّقُوا إلىٰ ما وعدوا به»[(١)].

وقال أبو حامد الغزالي: «ولعمري؛ في الشَّهوة حكمةٌ أخرىٰ سوىٰ الإرهاق إلىٰ الإيلاد، وهو ما في قضائها من اللذَّة التي لا توازيها لذَّةٌ لو دامَتْ، فهي مُنبِّهةٌ علىٰ اللذَّات الموعودة في الجنان؛ إذ الترغيب في لذة لم يجد لها ذواقًا لا ينفع، فلو رُغِّب العِنِّينُ في لذَّة الجماع، أو الصبيُّ في لذة الملك والسلطنَة لم ينفع الترغيب، فإحدىٰ فوائد لذَّات الدُّنيا الرغبةُ في دوامها في الجنة؛ ليكون باعثًا علىٰ عبادة الله.

فانظر إلىٰ الحكمة، ثُمَّ إلىٰ الرحمة، ثم إلىٰ التعبئة الإلهية، كيف عُبِّئَت تحت شهوةٍ واحدة حياتان؛ حياة ظاهرة، وحياة باطنة:

فالحياة الظاهرة: حياة المرء ببقاء نسله؛ فإنه نوعٌ من دوام الوجُود.

---

(١) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» ص (٥٣).

والحياةُ الباطِنَة: هي الحياة الأخروية؛ فإن هذه اللذَّة الناقصة بسرعة الانصرام تُحرِّك الرغبة في اللذة الكاملة بلذة الدوام، فيستحث علىٰ العبادة الموصلة إليها، فيستفيد العبدُ بشدة الرغبة فيها تيسُّر المُواظبة علىٰ ما يُوصِلُه إلىٰ نعيم الجنان»[1].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١١٧-١١٨). وذكر أيضًا فائدتي خلق الله تعالىٰ للشهوة في الإنسان في كتاب (كسر الشهوتين)، من ربع المهلكات من «الإحياء» (٥/ ٣٥٨).

خاتمة

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

قال ابن تيمية رحمه الله: « في قوله في آخر الآية: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فوائد جليلة: منها: أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق؛ تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج، وترك إبداء الزينة، وما يتبع ذلك، فمُستقلٌّ ومُستكثر»[1].

وبعد،

فإني أسأل الله تعالى أن تكون هذه الورقات سببًا في توبة من حُرم من لذة العفة وحفظ البصر عن الحرام، وسببًا في ثبات من ذاق تلك اللذة، وأن يوالي علينا من نعمه وفضله، وأن لا يحرمنا بتقصيرنا وتفريطنا لذة النظر إلى وجهه سبحانه وتعالى.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤٠٣).

قال مُقيِّدُه - عفا الله عنه - :

وكان الفراغ من كتابة الإبرازة الأولى من هذه الرسالة ليلة الإثنين ١٩/ صفر / ١٤٢٧ هـ

ثم راجعتها وزدت عليها وهذبتها في مجالس متعددة خلال سنوات عشرة، آخرُ تلك المجالس ليلة الأربعاء ٢١ / شوال / ١٤٣٧ هـ

والحمد لله رب العالمين

الفهرس